

نقضي وتقويم في الثقافة العربية... أيضاً!

بقلم محي الدين اسماعيل

الإنسان المتطلع ، الإنسان المتهب شوقاً الى الافق ، والإنسان الراضى بمسؤولية وإيجابية وقوة هذا المناخ القاتل الوبيل الذي أشاعه الغرب والذي لم يعد صالحاً ليتنفس فيه الإنسان .

ان مناخاً ساحقاً أشاعه الغرب في هذين القرنين الاخيرين ، وما انقضى من قرننا هذا ، مناخ القلق والتمزق والضياع وانعدام المشل الكبرى .

انه من العيب مرة أخرى ، ان نبحت الفكر الغربي ، فكراً فكراً ، وفكرة فكرة ، ذلك لان القلق والتمزق والضياع والكدر والمهوم والتبدل ، هي اليوم جوهر مصطلحات الحضارة الغربية الراهنة ولغتها .

ان اجيالاً كاملة في الغرب منذ اكثر من قرنين ، ما فتئت تصرخ وتجار باعلى صوتها : ان لم يعد هناك خلق يمكن ان يعاش من اجله . الدمار هو عنوان الحياة الانسانية . الإنسان قذيفة غير موجهة تنطلق في العماء . كل شيء قد انحرف . التاريخ بأسره يمثل اكبر انحراف في التاريخ ! ان ظلال الإنسان على الارض قد تهشمت وانحلت ثم استحالته الى عتمة مطلقة .

ان الحضارة الغربية قد أخرجت لنفسها وللعالَم منذ اكثر من قرنين مواكب لم تنقطع من الفلاسفة والفنانين والمفكرين الزيفيين والمسحاء الدجالين والعرافين ، وكلهم بصوت واحد يصرخون ويجارون الى العلاء من هاوية الالم والسقوط .

الصوت الغربي الواحد ، تحول جميعه الى مرثية اليمة واحدة طويلة النفس بلا انقطاع ! مرثية اليمة واحدة تعلن بالف لحن جنائزي سقوط الانسان دون اعتذار أو توبيخ ضمير ، كما تعلن استحالة العالم الى بلقع أجرد عقيم !

اننا بالرغم من ذلك ، ما زلنا نتحدث بلغة الغرب ومصطلحاته التي استحدثناها منذ اكثر من قرنين في محاولة مخففة اسيفة لفهم العالم والحياة والإنسان ، وما زلنا نرفض كل مفامرة أصيلة لكي ندخل العالم من جديد .

وان نماذج اسيفة معززة على استخدام هذه المصطلحات لفهم العالم والحياة ولفهمنا لانفسنا ، ما زالت تستبد بمناخنا الفكري ، لترضي نهم عقد النقض الآكلة في أعماقنا .

ومن هذه النماذج البحث الذي كتبه بسام طيبي عن « الثقافة العربية المعاصرة بين التقدمية والرجعية » ، وهو وامثاله ، هذا البحث وامثاله ، يؤلف بواعث ما نحن بصدد التأكيد عليه من الضياع وخسران الذات والتصرف تحت وطأة عقد النقض .

يستعرض الكاتب « الثقافة » و « المثقف » نظرياً وتاريخياً فيرجع الى اصول الكلمة في اللاتينية ثم يستوقفه اللفظ العربي فيقول : ولا ادري ايمولوجية كلمة « الثقافة » في العربية !!

ان الكاتب الذي حشد لنا في بحثه هذا جميع عناوين الكتب الالمانية المرصوفة على الرفوف لم يكلف نفسه عناء الرجوع الى اللفظ العربي الذي يعالج بحثه ليعرف على الاقل انها ، وفي أبسط الراجع ، مأخوذة من « ثقّف الرمح أي قومه وسواه » . ثم تحولت اصطلاحاً ، الى ان قالت العرب « ثقّف الولد » أي هذب وعلمه فتهذب وتعلم فهو مثقف وهي مثقفة . ويحاول الكاتب ان يتحدث بالمصطلحات فيؤلّس مصطلح « مقولة » اذ يقول : لذلك فان مقولة « الثقافة في جميع اللغات الاوروبية مشتقة من الكلمة اللاتينية ... » وهو يعني « لفظ

المطلوب من المثقف العربي اليوم ان يتجاوز انسحاقه وهزيمته امام الآخرين . المطلوب منه ان يحس ويستشعر بايجابية وبقوة رصيد الذات . المطلوب منه بكل ايجابية وبكل قوة ان يقدم نفسه ، لا ليمسح عار هزيمة واحدة بل هزائم قرون متناولة . المطلوب منه ان ينقض عنه جميع اوحال القرون .

ان هناك استحالة مطلقة ، استحالة واقعية وتاريخية ، ان نمسح الهزيمة الجزئية ، وعارها واوحالها ، ان لم تكن قادرين على ان نقف بايجابية وبقوة لنمسح جميع هزائم القرون وعارها واوحالها ، وان نرفض كل غفران لذاتنا ، اي ان تكون قساسة كل القسوة على ذاتنا ، غلاظا كل الغلظة على انفسنا .

ان الهزيمة هزيمة واحدة - ولن تكون الهزيمة مرة الا اذا تجرعناها - كما يقول حكيم قديم - . . الهزيمة واحدة ، وان تجزئتها تجزئة لقفصتنا ، تجزئة لتاريخنا وواقفنا وآفاقنا واحلامنا .

علينا ان نتخلص وننقذ انفسنا مرة والى الابد من جميع عقيد النقض والانسحاق بعملية روحية اخلاقية حضارية ، تضعنا على مستوى جديد من مستويات الحياة الانسانية . وعلينا قبل ذلك ان نعلم مشقة هذه الطريقة وآلامها ووحشتها وعزلتها اول الامر قبل ان يتم عملية الانقاذ والخلص .

الهزيمة واحدة لا تتجزأ ، كما النصر واحد لا يتجزأ ! من هنا ، من هذا الاحساس بضرورة الخلاص والانقاذ ورفض الهزيمة الواحدة غير القابلة للتجزئة ، وتحقيق النصر الواحد غير القابل للتجزئة ، ينبغي ان نباشر عملية الحياة الجديدة . . من هذا الاحساس يجب ان تنطلق مباشرتنا لقضايانا الكبرى . وهو ليس محض احساس بضرورة تاريخية وواقعية ، انه احساس اخلاقي روحي مادي تشارك فيه جميع قوى الإنسان فينا .

ويومئذ ، يومئذ فقط ، نستطيع ان نتعامل ذلك التعامل الاصيل مع الآخرين دون مساومة ودون هزيمة ودون انسحاق ، وان نحقق عمليات الاخذ والعطاء ، وان نؤكد الممارسة المسؤولة لجميع قضايانا دون احجام عن تبعات وجودنا بمستواه المطلوب .

ان قرون الهزيمة والذل والانسحاق قد ركبت في اعماقنا عقد النقض امام المستويات الجديدة من الحضارة ، وافقدتنا الرؤية الصادقة للذات وللتاريخ وللواقع . ان الواحد منا لم يعد قادراً على ان يكون مشاركاً في قضايا العالم وهمومه واكداره دون ان يتحدث بمصطلحات الآخرين ، والآخرين هنا هو الغرب الساحق الماحق بحضارته المادية التكنولوجية المتأزمة التشنجة التي فقدت كل قدرة على خلق المناخ الطبيعي للابداع الانساني الحر .

لقد فقدنا امام الآخرين ، وامام الغرب بالذات ، كل قدرة على المفامرة ، وفقدنا صلاتنا بالذات وبالتاريخ وقدرتنا على ان نعلن كلمتنا في معترك قضايا العالم .

اننا تحت وطأة عقد النقض ، لم ندرک بعد ، حقيقة التازم الفاجع والتشنج الاسيف الذي يعيشه الغرب اليوم ، فما زلنا تحت تلك الوطأة الراضخة نتحدث بلغة الغرب عن اخص خصائص الذات ، حتى لم يعد هناك شيء نقوله ونتحدث به ونعلنه للعالم .

انه من العيب ان نمسك بالحضارة الغربية ، فكراً فكراً ، وفكرة فكرة ، لنبحث قيمتها وتقويمها بمعايير الإنسان ، الإنسان المتحضر ،

الثقافة « هنا اجدي مضطرا على القول بان مصطلح « مقولة » تقابل اللفظ الفرنجي Category وليس أي شيء آخر ، فذلك من بديهيات ما تتبين معرفته على كل من يستعرض مثل هذا الثبوت المرعب من المراجع في لغة القوم !

ويضمي الكاتب فيستعرض قصة الثقافة تاريخيا فيرى انها : « في المصور الاقطاعية في أوروبا وبلاد العرب ايضا كانت الثقافة ثقافة القصور ، فكان الاقطاعي ، بكونه اميرا أو ملكا ، هو المشرف على شؤون الثقافة ، وكان العلماء والادباء يعيشون في بلاط الامراء وامثالهم ممن الاقطاعيين ، ولم يكن من الممكن نشر الادب أو العلم خارج نطاق القصور الاقطاعية » .

ان البيغابوة الاسيطة البائسة هي التي تفرض على البعض منا ان يفسر تاريخنا بحسب الصيغ التي استحدثتها بعض الفلسفات الوضعية والمادية في القرن التاسع عشر في أوروبا . والا فإين هو عصر الاقطاع العربي ؟ في أية فترة زمنية بدأ ، ومن أية قوى اجتماعية نشأ ؟ ان النظام الاقطاعي نظام له خصائص معينة نشأ في أوروبا وتحت تأثير عوامل تاريخية تختص بالوضع التاريخي الاوروبي ، بعد تفسخ الامبراطورية الرومانية المقدسة وتقسيمها بين احفاد شارلمان وتحول ممتلكاتها الى اقطاعات كبيرة .

والسؤال المهم هو : هل ، حقا ، ان تلك المراحل التاريخية التي اعتمدها بعض الفلسفات الاوروبية في القرن التاسع عشر لتفسير تطور المجتمع الاوروبي ، سنظل قانونا فولاديا لا يمكن ان تدخل عليه الإرادة الانسانية أي تعوير أو تبديل ؟ وكيف يمكن ان نفهم التاريخ العربي طبقا لتلك المراحل التاريخية ؟ وما هو العنوان الذي يمكن ان يلصق على مجتمع كالمجتمع العربي الجاهلي ؟ ثم بعد ذلك ما هي طبيعة المجتمع العربي الاسلامي في بدء الدعوة المحمدية ؟ ما هي طبيعته فسي العصر الاموي والعصر العباسي وفي عصور الانحطاط والحكم المولوي والتتاري والتركي ، وفي ظل الاستعمار الاوروبي الحديث ؟

اني اشك جدا في سلامة تطبيق تلك المراحل التاريخية الاوروبية على المجتمعات العربية ، وان اية محاولة في هذا ، لسن تكون سوى محاولة في سبيل لي عتق الزجاجة ، وستظل محاولة زائفة تعتمد المصطلحات المستوردة تحت وطأة الانسحاق الذي نعانيه جميعا امام حضارة الغرب : الغرب الغربي ، والغرب الشرقي ، على السواء !

ان الالتزام البيغابوي بهذه المصطلحات والانهار بهما الى درجة الشلل العقلي والوجداني ، هي سمة من سمات عجزنا وهزيمتنا امام طاغوت المدينة الغربية الحديثة بقربها الفاتنين ، وما مضى من قرنتا العشرين ، على وجه التخصيص .

ان الاقطاع أو النظام الاقطاعي ، بمناه الذي يتحدث عنه فلاسفة الغرب ومفكروه ، لم يعرف في البلدان العربية طوال تاريخها ، حتى الاحتلال الانكليزي لمصر ، وبعده احتلاله للعراق . عندئذ بدأ الاحتلال الانكليزي يقيم نوعا من النظام الاقطاعي المصطنع الزائف دون اية مقدمات تاريخية واجتماعية ودون اية مؤسسات فكرية تقوم على ذلك الاساس ، من اجل ان يكون قوة من قوى الدعم والاستناد للاحتلال ، فاتصل بباشوات مصر وبشيوخ القبائل والعشائر في العراق بعد ذلك ، وقدم لهم الامتيازات ، فاقام من هؤلاء ، هنا وهناك ، فئة اجتماعية دون اية جلور تاريخية ، ودون اية مسوغات للبقاء . وان انهيار هذين النظامين المصطنعين في كل من مصر والعراق بعد ثورتني ٢٣ تموز ١٩٥٢ و ١٤ تموز ١٩٥٨ ذلك انهيار العاجل دون ان يترك اية آثار فسي الحياتين المصرية والعراقية ، دليل على عدم جدية هذا النظام المستورد الزائف الذي اصطنع اصطناعا في هذين البلدين العربيين بقسوة اسلحة الاحتلال . وان قوة الاحتلال والقوى المحلية التي عملت على دعمه لم تستطع ان تربط الفلاح بالارض ، كما هو الحال فسي النظام الاقطاعي الغربي ، بل على العكس من ذلك ، وجدنا ان تدفق الهجرة من الريف الى المدن كان سمة النظام الاقطاعي الزائف في كل من مصر والعراق . اما البلدان العربية الأخرى ، سواء في المشرق أم في المغرب ، فلم

تعرف حتى ولا محاولة واحدة من محاولات اصطناع مثل هذا النظام . وان قيمة واحدة من القيم أو مفهوما واحدا من المفاهيم أو تقليدا واحدا من التقاليد لم يترك اثره من هذا النظام المنهار سواء في مصر أو في العراق .

اما بالنسبة للغرب ، والغرب الغربي ، بوجه خاص ، فالامر على النقيض من ذلك تماما .

ان تفسخ الامبراطورية الرومانية المقدسة بعد توزيعها على احفاد شارلمان ، ونشوء المدن والاسواق المحلية في مدن غربي أوروبا ، لتكون مراكز القوة للكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، وعواصم الاساقفة التي تشتمل على الاديرة الكبرى ، مع ما يتبعها من الاقطاعات الزراعية الشاسعة ، ونمو التقاليد والاعراف الخاصة طبقا لذلك ، قد خلق نمطا من الحياة ، اصبح فيها السيد الاقطاعي المرتبط بالمؤسسات الكهنوتية يمثل قوة اجتماعية لها خصائصها ومقوماتها ، يرتكز على قوة الفلاحين الذين هم جنود السيد الاقطاعي الذي يمثل مركز القوة لسلطة الكنيسة . والاديرة هي ذاتها ، بعد فترة من الزمن ، جامعات الغرب في باريس واكسفورد ويطاليا . ومن هنا نجد ان التعليم في هذه الجامعات قد احتفظ بشكله التقليدي الذي ورثه عن الاديرة ، ونعني به شكل « الموعظة الحسنة » ، ذلك ان الاكليروس هي الفئة الاجتماعية التي تحملت مسؤوليات نشر التعليم ، كما تحملت ايضا مسؤولية ادارة الاقطاعية وصلات الفلاحين أو الجنود بالسيد الاقطاعي من جهة وبالكنيسة الكاثوليكية الرومانية من جهة اخرى .

اما ثقافة هذا العصر الاقطاعي ، في الغرب الغربي ، فلا يمكن استخلاصها من محض الصلات والعلاقات الاقتصادية وطبيعة أدوات الانتاج الزراعي ، بل يجب متابعة قصة هذا العصر الى الجذور . وان اية محاولة لفهم عقلية وجدانية هذا العصر وتقليده واعرافه في حدود تلك الصلات والعلاقات وطبيعة أدوات انتاجه انما هي محاولة قاصرة عقيمة مردها الى تلك الذهنية البيغابوية التي تفسر الامور على غير طبائعها .

ان ثقافة هذا العصر وتقليده وجدانيته واعرافه وتكونه الذهني والنفسي يجب ان يرجع بها ، الى جميع تلك العوامل ، التي طبيعة عقيدة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية القائمة على تلقائية الايمان بما في التثليث وفي مبدأ تحول الخبز والنبيذ الى جسد السيد المسيح والتي الرموز العديدة التي اكدتها الجامع الكنسية واقرتها كمبادئ تقوم على اساسها العقيدة المسيحية ، والتي كانت ، بطبيعتها لا تثق وثوقا كاملا بالعقل . ومن هنا نجد ان هذا العصر قد شهد عددا من اكبر القديسين في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، من امثال برنار والقديس فرانسيس الاسيسي والقديس آلسنت وتوماس اكيمس صاحب الطرفة الصوفية المسيحية المعروفة « الاقتداء بالمسيح » ، ممن ناروا على سلطان العقل ، وعارضوا كل قضية تصدر عن العقل في مملنة الايمان .

ان الذهنية التي رفضت سلطان العقل النهائي في هذا العصر ، لم تكن ثمرة النظام الاقطاعي بعلاقاته الاقتصادية وطبيعة أدوات انتاجه الزراعية فحسب بل كانت ثمرة هذه وذاك من مبادئ العقيدة الايمانية للكنيسة الكاثوليكية الرومانية .

ان النظام الاقطاعي الغربي كان ، في حقيقة الامر ، قائما على العادة: عادة الصلة بين السيد الاقطاعي وفلاحيه وجنوده ، ومادة صلة السيد الاقطاعي بالكنيسة ، وعادة الصلات بين السادة الاقطاعيين ، وعادة ممارسة السلطة للسيد الاقطاعي فسي جميع المجالات . . العادة هي الحق . لم يكن هناك حق من حيث هو حق ، وانما الحق هو الذي تقره العادات والاعراف والتقاليد . وفي هذا اوضح تعبير عن الغاء قوة العقل وقوة الوجدان الانسانيين .

هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى نجد ان عصور الاقطاع في الغرب الغربي لم تميز بين ما هو روحاني وبين ما هو دنيوي فسي حياة الانسان ، فالسيد الاقطاعي ليس مجرد سيد دنيوي ، بل هو رمز كنيسي ايضا .

الى السادة الادباء

لا يزال بعض الادباء الكرام الذين يتعاونون مع « الآداب » يرسلون المادة النثرية نفسها التي يوافقون بها المجلة الى مجلات اخرى في وقت واحد ، او بعد مضي زمن قليل ، فيحدث ان تنشر هذه المادة في « الآداب » وفي مجلة اخرى في الشهر نفسه او في شهرين متتابعين .

وتجد رئاسة تحرير المجلة نفسها مضطرة الى تجديد التنبيه الى ان المجلة ستمتنع بعد الآن عن نشر اي مقال او قصة او قصيدة يتبين ان صاحبها يلجأ الى هذا الاسلوب .

ايطاليا وفي اقسام كبيرة من الغرب الغربي كان عاملا من عوامل ترسيخ حياة الفلاح الاقطاعية .

ذلك كله لم يعرفه المجتمع العربي في جميع عصوره . وان اية دراسة تقوم على اساس من تطبيقات النظريات المستمدة من التاريخ لا بد ان تكون دراسة فاشلة تخضع لسحر المصطلحات ، ولا صلة لها بالواقع العربي ولا تاريخه .

ومن المؤسف ان معظم الكتاب الذين يعرضون لدراسة واقعتنا وتاريخنا قد خضعوا بوعي او بغير وعي لسحر تلك النظريات ومصطلحاتها ، فلم نقرأ اية محاولة لدراسة تاريخنا وواقعنا استنبطت من العكوف على هذا الواقع وهذا التاريخ وانعام النظر فيهما بمعزل عن التأثيرات المستوردة التي تؤكد ما نقوله عن انسحاقنا وتوالي هزائمنا امام الفكر الغربي .

ان الكاتب منا - بحسب ما يبدو لي - قد يربله الخجل اذا لم ينتم الى مدرسة من مدارس التفسير التاريخي في الغرب : الغرب العربي او الغرب الشرقي . وذلك ابلغ الادلة ، في نظرنا ، على ما نؤكد عليه من رزوحنا تحت اعباء عقد النقص الاكلة النهضة التي لوثت كثيرا من مسالكتنا الفكرية ، وابتعدتنا عن واقعية الاختيار الذاتي ، ثم جعلتنا ننساق مع هاتيك المدارس لنخضع الانسان بكل طاقاته والحياة بكل غاياتها الكبرى للمقتضيات العابرة التي تحددها تلك المدارس في ضوء تجاربها الخاصة ، فتحول الانسان وتحولت الحياة الى محض كتسل موات تخضع خضوعا لاعاصم منسه للحنمية الفولاذية ، باسم النظرة العلمية !

تلك هي اللوحة العامة ، بخطوطها العريضة ، للنظام الاقطاعي الذي شهده الغرب في بعض عصوره والذي بنيت على اساسه نظرية المراحل التاريخية في الفلسفات المادية في القرن التاسع عشر ، والذي نجم عن موروث الرق الروماني ، او بتعبير أدق رقيق الارض Serfdom

ومن هنا ، عندما بدأت ملاحق الفكر المنحدر تناقش قضايا العقيدة وقضايا الانسان ، كانت تلك المناقشة تستهدف مناقشة الحق باعتباره عادة من العادات ، وتحاول ان تفصل بين ذلك الخلط التقليدي بينه ، أي بين الحق والمادة . وتلك قضية هامة ينبغي ان ينتبه لها المرء عند دراسة تلك العصور .

اما المجتمع العربي ، فلم يشهد مثل هذا النظام الاقطاعي المعروف في الغرب العربي ، بقيمه وتقاليد وأعرافه وذهنيته وصلاته الاجتماعية والاقتصادية .

ان التاريخ العربي بأسره لم يشهد نظاما اقطاعيا اقليمي اواخر القرن التاسع عشر في مصر وفي اوائل القرن العشرين في العراق ، وكان النظامان اللذان أقيما هنا وهناك نظامين مصطنعين ليست لهما اية جذور تاريخية او حتى اجتماعية او اقتصادية - كما سلف القول - . اني هنا ، لست مهتما بوضع بحث عن طبيعة المجتمع العربي منذ عصره الجاهلي ، ولكن الذي ينبغي ان نفرده هنا ، هو ان ذلك النظام الاقطاعي الذي عرفه التاريخ الغربي بتقاليد وأعرافه وحقه التقليدي وذهنيته لم يشهده المجتمع العربي على مدى تاريخه ، ولم يكن ذلك شذوذا او انطفا شاذا في التاريخ ، بل كان أمرا طبيعيا ، فالجتمتع العربي لم يشهد علاقات كالعلاقات القروية بين مؤسسة كمؤسسة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، والسادة الاقطاعيين وادوات اقاليم الغرب كاقليم الفلاندر وادواقه - مثلا - ولم يعرف المجتمع العربي حياة كالحياة الديرية وما عرفته الديرية من حياة ثقافية نشأت عنهما جامعة باريس وجامعة أكسفورد ثم بعدهما جامعات أوروبا الأخرى . ولم يعرف المجتمع العربي انفسا تقليديا في الحياة الثقافية ، بين السيد والفلاحين والجنود من جهة ، وبين البيئات المستنيرة من جهة أخرى . ان السيد الاقطاعي في الغرب لم يكن معنيا بأي شأن من الشؤون الفكرية والثقافية في عصره وكذلك كان فلاحوه وجنوده ، بينما كانت الديرية في عصور طويلة تحتدم بالجدال العنيف بين (الواقعي) و (الاسمي) في الوجود والكون ، وبين (العام) و (الخاص) في الحياة اليومية العادية . ان السيد الاقطاعي في الغرب العربي لم يكن يعرف شيئا عن الحياة الثقافية في كنيسة القديس يولييان الفقير أو الكليات الديرية التي بناها روبرت دي سوربون (السوربون) مثلا والتي كانت موئل الكهنة والرهبان والمتقنين في تلك العصور . ان السيد الاقطاعي العربي كان مشغولا بمطارداته وبطولاته العادية ، ولم يكن سوى رمز للصلة الروحية مع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ... لا شيء سوى الرمز .

ان المجتمع العربي لم يعرف في تاريخه نمو المدن على طريقة التجمع الحرفي والمهني الذي شهده الغرب وتآليف النقابات الحرفية Guilds وفرضها شروط التضمين والتأمين وتوظيف الاموال في الحرف والمهن المختلفة وتنظيم ضرائب المدينة المعروفة في أوروبا في العصر باسم Firma Burgi ثم البراءات المعروفة باسم Charters في القرن الثاني عشر . ولم يعرف المجتمع العربي طوال تاريخه نظام القلعة المرتبطة بحياة النظام الاقطاعي في الغرب ، ذلك انه منذ انهيار الامبراطورية الرومانية المقدسة كان على المدينة الاقطاعية ان تقدم للسيد الاقطاعي مبالغ معينة من المال لاقامة القلعة والاسوار وحمايتها من المعتدين والغزيرين ومن هجمات التبريرين . ان المجتمع العربي لم يعرف مثل هذه العلاقات والصلات على الاطلاق باستثناء أوجه شبه عرضية بين حياة الفلاح الاقطاعية هذه وحياة الفطور المعروفة في التاريخ العربي ، أي تخوم البلدان العربية المصاحبة للروم بوجه خاص ، وبصفة اخص نقر حلب وبقلعتها المعروفة أيام الحمدانيين .

ان المجتمع العربي لم يشهد في كل تاريخه صراعا بين الم المدن والقلاع على الاراضي الزراعية ، أو صراعا بين الامبراطوريين واعضاء الامبراطورية أي البابويين . ان الصراع بين الامبراطورية والبابوية في

الروماني ، ذلك النظام الذي عرفته الامبراطورية الرومانية ، فرقيق الارض هم غير السبايا والاسرى والعبيد .

ان الفرور الغربي ، لا سيما في ظل مدينته التكنولوجية الحديثة التي تمت بانقلاب هائل مربع على جميع الانسانيات وقيمها ، قد اقسام نوعا من المنطق والفهم والمفاهيم جعل هذا الفرد الغربي يستخلص النظريات من دراسته للتاريخ الاوروبي ليطبقها عسفا وقسرا على تاريخ العالم بأسره . فالفرد الغربي يدرس اليوم تاريخ أوروبا ، او تاريخ الغرب ، وهو يحسبه يدرس تاريخ العالم .

وانه لمن المحزن الممض حقا ، ان ثقافتنا العربية المعاصرة لم تتعامل مع كبرى الحضارات تعاملا أصيلا بسبل وقفت موقف المنسحق اللاهث يفتح فمه عجبا ودهشا أمام سحر المدنية التكنولوجية الساحقة ، دون أن يضعها في مكانها الطبيعي ، ويقدرها حق قدرها من غير اسراف او مغالاة ، وبالتالي استعمار جميع مصطلحاتها ومفاهيمها ومعاييرها وقيمها ، بكل ما فيها من جور على الانسان وعجز عن حل مشكلاته حلا ايجابيا ، بالرغم من كل سحرها ، وبالرغم من كل ما تنطوي عليه من مدلولات قدرة الانسان على الكشف عن كنوز الطبيعة والنفاذ الى اعماقها وتذليلها لارادته ومشيبته ، قد حققت ذلك على حساب الجوهر الانساني الحق الذي أهمل ، بل ارتكبت ضده جرائم وحشية لا يمكن ان تفتنر .

ان هذه المدنية تعلن لنا ، بكل تأكيد صارخ بليغ ، انها ، وخلال جيلنا هذا الذي نحياه ونعاني تجرته البيرة ، قد فارقت الى الابد قدرتها على بلوغ الحلول الايجابية للانسان . . . انها هي التي تعلن ذلك ، وتؤكد به بكل الحان الموت والعطب والخراب .

ولن تستطيع ثقافتنا العربية المعاصرة ان تتعامل مسع كبرى الحضارات ومع ذاتها ذلك التعامل الاصيل المخصب ، ما لم تتمرد - اولا وقبل أي اقتحام - على الاستسلام لعقد النقص ازاء هذه المدنية التي تتأرجح وتترنح لاهثة مقهورة .

ان المسالك والتصرفات الناجمة عن عقد النقص هذه هي التي املت على كاتب مثل بسام طيبي ان يكتب في الثقافة العربية المعاصرة فيتهمني بان مفهومي للفكر مفهوم مينا فيزيقي واني امثل فقرة الى الوراء . الى المثالية الهيكلية ، وان مثاليتي ، بعد ذلك ، اكثر انخفاضا من مثالية هيغل ، واني عجزت عن ان اقدم تفسيرا لانفصال الفلسفة عن الادب في الفكر العربي المعاصر .

ان هذه الثعوت ومثيلاتها ، مع اعتذاري للنفس ، قبيل اعتذاري للآخرين ، ارى انها لم تعد شيئا ذا بال لدي ، فانه لم يعد مما يشرفني ان اكون هيغليا ا و غير هيغلي او ان اكون من عبيد هذا الثبت من المصطلحات او ذلك . اقول ذلك بعد ان سلخت من العمر زهاء ربع قرن قصيته في العكوف على دراسة آثار الغرب وفكر الغرب بشتى مدارسه الادبية ، والفلسفية العظمى ، وما زلت احاول بكل جهد ان استقبل كل ما هو انساني في هذا الفكر او غيره ، مع جهد جهيد في ان لا اكون من هذا العلق المصاص ، المتصاغر ، المتصاغر جدا الى حد العمى عن رؤية الذات ، ثم العمى عن رؤية الآخرين ، على غير حقيقتهم وبغير قاناتهم الحقيقية .

فهل اوشكنا ان نستشرف مرتجيات عهد جديد ؟

محيي الدين اسماعيل

اصول الفكر الماركسي

تأليف اوغست كورنو
ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد

صورة الفنان في شبابه

رواية تأليف جيمس جويس
ترجمة ماهر البطوطي

الشوارع العارية

رواية تأليف فاسكو براتوليني
ترجمة ادوار الخراط

صحراء التتر

رواية تأليف دينو بوزاتي
ترجمة خليل الهنداوي وابراهيم المرجاني

دار الآداب تقدم

في الموسم الجديد القادم
مجموعة هامة من الكتب الجديدة

بين آدم وحواء

للمرحوم الدكتور زكي مبارك

الشعر الجديد . . . لماذا ؟

تأليف صلاح عبد الصبور

مختارات من شعر

علي محمود طه

تقديم صلاح عبد الصبور

عن الرجال والبنادق

بقلم غسان كنفاني